٣ — من ذكرياتي في بلاد النوبة :

في جنح الليل !

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

ألقت بنا الباخرة إلى مرفأ عنيبة ، وسط ضجيج الحالين ، وصيحات الركاب ، وضوضاء البحارة ، الذين شرعوا بمساعدة الحالين ينزلون أمتعتنا ، وأمتعة فضيلة قاضي عنيبة المنقول من إسنا إلى هذه البلدة النائية ، والبضائع الكثيرة المرسلة إلى المدرسة من خضر ، وفاكهة ، وبعض العُلب والصفائح المليئة بالسلى وغيره ، مما لا يكاد يوجد منه شيء في عنيبة ، ويجلبه المتعهدون من أسوان وغيرها من بلاد الصعيد الوفيرة الخيرات ..

ولم نجد في الحالين شهامة ونجدة ، ونشاطاً وإسراعاً إلينا ، كما نجد هذا في حمالي القاهرة أو مديريات الوجه البحري ، وبعض مديريات الصعيد مما يلي القاهرة ، حتى ليهرع إليك عدد من الحالين قد لا يكون إليك حاجة بهم ، ومع هذا يكاد كل منهم أن ينتزع أمتعك منك ، ويحملها عنك ... وإنما وجدنا فيهم تباطؤاً وكسلا ، وتوانياً ، جعلنا نصرخ فيهم ، ونشتد معهم في المعاملة ، ونقسو عليهم في القول ، وهم يتهربون ، ويتسللون لواذاً ، وكأنما نريد أن نستغلهم استغلالا ، وأخيراً قالوا لنا : دعوا أمتعتكم ، واذهبوا إلى المدرسة ، وسنوافيكم بعد مدة ، عندما ترحل الباخرة .. !!

ونظر بعضنا إلى بعض نظرات ملؤها الدهش والعجب ، والحيرة والارتباك ، إذ كيف ندع أمتعتنا على الشاطىء بين فئة لا ندري من أمرها شيئاً ؟ ! وكأنما زاد مخاوفنا ظلام الليل ، الذي لم نجد معه أضواء الباخرة شيئاً ، بل كانت هذه الأضواء مع قوتها ضعيفة واهنة ، وكأنها أشعة خافتة لنجم كليل ! وكانت أمواج النيل الصاخب ، تضطرب في عنف ، وترتفع إلى حيث تقف مع الجموع المستقبلة للباخرة وتقبل منا الأقدام ، في ثورة خانقة ، وغيظ صارخ ، فتبلل أحذيتنا ، ولكنا من فرط ما نحن فيه من دهشة وعجب واستغراب ، لا نكاد نشعر بهذه الأمواه ، ولا نحس لها أثراً ؟ !

وضاقت صدورنا . لأننا وقد أثقلتنا هذه الأحمال والأمتعة ، لا نجد من يسرع في حملها حيث نريد .. وتطلعنا حوالينا ، فلم نجد إلا النيل شرقاً ، رحباً مخيفاً ، والجبال غرباً ، بشبحها المظلم القاتم ، وكأنها حراس علينا ، تشرع في وجوهنا أسلحة لا نطيق لها صبراً ، ولا عليها احتمالا ، فيقينا هكذا مدة ، ثم عارض بعضنا في هذا ، وسكت البعض الآخر مقتنعاً بهذه المعارضة ، ولكنا في النهاية لم نجد مناصاً من الرضوخ لهذه الرغبة ، والنزول على هذه الإرادة مكرهين ، فلقد اتجهت إلينا الأنظار متعجبة دهشة ، وكأنها تقول : علام التشكك والارتباك ، وعلام الخوف والاضطراب وهذه البلاد لا موضع فيها لخائن الأمانة ، أو ناكث للعهد ، أو خافر للذمة ؟!! وكأنما كانت هذه النظرات ألسنة ناطقة ، لا نظرات صامتة ، فسرعان ما شمرنا جميعاً بالتخاذل والخجل ، ومضينا إلى حيث نريد ..

سرنا على الميناء متجهين إلى المدرسة كما أشار لنا بعض الواقفين ، وميناء عنيبة جسر ممدود إلى داخل النيل ، نهايته على الشاطىء الأصلي للنيل ، فإذا جاء الفيضان ، وارتفعت مياه النيل خلف الخزان في نوفمبر تقريباً من كل عام ، وجدت الميناء عبارة عن لسان طويل جداً ، ممدود حوالي ثلاثمائة متر ، وعرضه متران تقريباً ، فإذا ما زاد الفيضان ، غمر هذا اللسان ، ورست البواخر على الشاطىء الجديد ، الذي يظل الماء عنده إلى أوائل مايو ، ثم يأخذ في الانحسار مرة أخرى حتى يصل إلى الشاطىء القديم ، فيضيق النيل كثيراً . وحول الميناء شاهدنا بضع عوامات ، وعلمنا أنها كلها تابعة لوزارة الأشغال (مصلحة الميكانيكا والكهربا) ، وأن منها ما يستعمل كـ (عنبر) صغير به مضخات لرفع مياه الشرب من النيل إلى محطة الطلمبات الخاصة بهذه العملية في مستعمرة عنيبة . ومنها ما يستعمل كمنازل صغيرة لغير المتزوجين ، ومنها ما يستعمل للصيانة ، فيكون أشبه بمصنع صغير متنقل ، وهذا لا يرسو في عنيبة دائماً ، وإنما ينتقل بين محطات المركز كبلانة والدكة وغير ذلك .

كان الظلام حالكا ، والسكون شاملا ، ولم يكن هناك أثر لشعاع من النور ، وخاصة وقد صفرت الباخرة ، وأطفأت مصابيحها الأمامية (الكشافات) التي لا تضيئها إلا عندما تريد الإرساء في محاط المركز .. أما عندما تسير فلا تستطيع أن تنير

هذه المصابيح ، لأنها بانعكاسها على الماء ، واضطراب صفحة الماء، تدع الربان لا يستطيع أن يتبين طريقه ، ولا يعرف كيف يسير !

مضينا نضرب في الرمال على غير هدى ، لا نكاد نرفع رجلا حتى تغوص أخرى ، الأمر الذي أوهن قوانا ، وأضعف عزائمنا، فقطعنا المسافة من الميناء إلى المدرسة في ساعة ونصف تقريباً ، بينما هي لا تتجاوز الألف متر .

وشعر كل منا بتقصير المدرسة في حقنا ، فكان الواجب يقضي بأن ترسل في انتظارنا أحد فراشيها ، وهم كثر على ما سمعنا، كدليل على الأقل يكفينا مؤنة السؤال عن الطريق وسط هذا الظلام الحالك ، الذي لم يجدنا معه السؤال شيئاً ، إذ أن كل شخص نسأله لا يحرك ساكناً بل يكلمنا في هدوء وسكون وهو جالس دون مبالاة ، مما جعلنا نغلظ القول لبعضهم ، وكدنا نعتقد أن كل الأهلين على هـــذا الوضع من الخمول المميت ، والكسل الأليم .

ودفع هذا الوضع الشاذ بعض الزملاء إلى الصراخ وسط هذه الفلاة القاتمة ، بألوان من السباب والغيظ ، والنقمة والثورة، ولكن الصوت كان يتردد صداه في وحشة مرهقة ، وكأنما نحن نسير في مقبرة مهجورة تعبث فيها الجن ، ومردة الشياطين فساداً ، وتنكيلا بالناس ...!!

وأخيراً وصلنا إلى المدرسة بعدما أرشدنا خفير المستشفى الذي اضطر لذلك اضطراراً حينما كدنا نضل الطريق نهائياً.. وفتحت لنا المدرسة أبوابها ، وكنت لا تسمع فيها حركة ولا صوتاً ، على الرغم من نوم التلاميذ ، وكثرة عددهم ، الذي يربي على خمسمائة تلميذ . واستقبلنا مشرفان فاضلان ، وجدنا في سماحتهما ولطف حديثهما ما هوّن علينا ما قاسينا من مصاعب ، في هذه السفرة الشاقة ، والرحلة المضنية ، وخاصة وأن أكبر مسافة قطعتها قبل أن أنقل إلى هذه البلاد ، هي المسافة ما بين القاهرة والإسكندرية ، والتي لا تتجاوز الأربع الساعات . .

وجال معنا المشرفان قليلا في أنحاء المدرسة ، بالقدر الذي يسمح لنا بتعرف ما حولنا ، ورؤية المكان الذي سنبيت فيه ، لنكون على خبر به ، وبينة من أمره وبخاصة ومعنا صبي صغير هو نجل أحد الزملاء ، وقد سمع هذا الصبي عن عقارب عنيبة في الباخرة ما جعله ينكمش في نفسه طوال المدة ، ولا يكاد يضع رجليه على الأرض ، خشية أن يناله مكروه ، فبقي شارد الطرف ، حائر الفكر ، مضطرب الشعور ، لا تكاد تكلمه حتى تدرك مبلغ ما يعانيه من حيرة وارتباك ... وكان الظلام ناشراً لوائه على المدرسة كذلك ، وكانت هذه المصابيح الهوائية الضئيلة ، تبعث الضوء خافتاً باهتاً ، وكأنما هو خائف مضطرب، يخشى صولة الظلام القاهر ، ووحشة الليل المخيف ...

والمدرسة كما علمنا لا تضاء بهذه المصابيح الهوائية المنتشرة في كل ناحية من نواحيها ، والتي تشتغل بزيت النفط ، بل تضاء بالكهرباء، فلها مولد كهربي خاص ، إلا أنه يدور قبيل الغروب من كل يوم ، ويتوقف عن الإدارة في الحادية عشرة مساء ، إلا إذا دعا الداعي ، لأن يبقى مدة أطول ، ساعة أو ساعتين حسب الحاجة إليه ، بأن أقيمت في المدرسة حفلة للسمر ، أو لتوديع بعض الزائرين ، وانتظار الباخرة التي ستقلهم إلى الشلال، إذ أن ميعاد بعض البواخر وهي السريعة ، الواحدة والنصف صباحاً ، أو الثانية أحياناً ، ولكن لابد للمسافر من أن ينتظرها ابتداء من الثانية عشرة أو قبل ذلك ، فربما تدفعها الريح مسافة تتقدم بها ساعة أو ساعتين !! أقول وفي هذه الظروف تبقى الإنارة حتى تنتهي الحفلات ، أو المناسبات ، ثم تشمل المصابيح على الأثر ..

وما كاد يستقر بنا المقام ، حتى جاء الخالون ، ومعهم أمتعتنا، يحملونها على الحمير النحيفة العجفاء ، فكان هذا دليلا عملياً ناطقاً بالأمانة الشاملة في هذه البلاد !

عبد الحفيظ أبو السعود

أطلب نسختك

من الطبعة الجديدة من كتاب

تاريخ الأدب العـــربي

يطلب في فلسطين من مكتبة الطاهر إخوان بيافا